السلم البارد

د. نبيل حيدري

الكتابة، مرة أخرى، عن الموقف العربي الموحّد من المؤتمر الدولي، هل ما زالت تشكّل حدثاً يذكر؟ أولى الاجابات الآتية الى الذهن، نفي؛ لأن الكتابة عن هذا الموقف، بذاتها ولذاتها، ليست سهلة، وانظارنا، كلها، مشدودة نحو انتفاضة شعبية تعيد تحديد طبيعة المعالجة، من خلال رمي المحتل الاسرائيلي بالحجارة؛ ولأن الكتابة، في هذا الامر، تعدّدت وتشابهت، معظم الاحيان، في انعدام اشكاليتها؛ ولأنها عبّرت عن هذا الاهتمام وكأن على الزمن السياسي العربي الراهن ان يشهد استنفاراً متسارع الايقاع لاستغلال انعكاسات الوفاق الدولي الجديد بين العملاقين على الشرق الاوسط، كورقة قوية في الدفع نحو عقد المؤتمر الدولي.

صحيح ان القرار الدولي اتخذ باتجاه تحقيق تسويات، او حلول، للنزاعات الاقليمية في غير منطقة ساخنة من العالم، وبضمنها منطقة الشرق الاوسط؛ ولكن الصحيح، أيضاً، ان هذا لا يعني، بالضرورة، ان تتجه كل الامور في المنطقة، فجأة وبكبسة زرّ واحدة، نحو الحل؛ اذ تبقى للنظم الفرعية الاقليمية قدرة، ولو محدودة، على عرقلة مسيرة التسوية وتأخير حصولها. فبعض هذه النظم يزعجه الحل، لا بل يلجمه كثيراً، لأنه بنى قوّته على الصراعات القائمة، فاذا ما انتفت هذه الصراعات انتفت قوته وارتدّت المشاكل الى داخله. واذا كان لا بدّ لهذه النظم من ان تسير في اتجاه تحقيق حل ما، فان ما تريده يجب ان يكون حسب شروطها، أو على قياسها، او الحل الذي يعطيها الاوراق المطلوبة، ممّا يعني تكريس هيمنة هذه النظم على المواقع التي تطمح اليها.

انطلاقاً من هذا الاعتبار، يمكن لنا بسهولة لحظ خصوصية الزمن السياسي العربي الراهن. لقد شهد النظام العربي، منذ العام ١٩٦٧، اتجاهاً واضحاً وعميقاً نحو التشرذم. كان الاستقطاب يتمّ، في المرحلة السابقة البعيدة، على أسس ايديولوجية، تنافس فيها التيار الاستقلالي مع التيار الهاشمي اولاً، ثم التيار القومي مع التيارات المؤيدة للغرب. هذا الاستقطاب الايديولوجي كان، جزئياً على الاقل، سبباً في احداث وحدة العام ١٩٥٨، لكنه كان، ايضاً، وسيلة مثلى لفشلها بمجرد الاتفاق مع عبدالناصر، وكان آنئذٍ زعيم التيار القومي بلا منازع، وبالتالي اصبح حل الازمات العربية الاخرى سهلاً، ولو غير تلقائي.

أما اليوم، فالنظام العربي تحكمه استقطابات، تلعب فيها الايديولوجيا دوراً هامشياً. وقد يكون المعيار الاساس للاستقطاب جغرافياً ـ استراتيجياً، بمعنى ان النظام العربي، برمّته، قد توزّع الى عدد من النظم الفرعية، ويتمّ حول قوى اقليمية قادرة مثل المملكة العربية السعودية في اطار مجلس التعاون الخليجي، وسوريا في المشرق العربي. وهنا، فلسطينياً على الاقل، بيت القصيد: فالاطراف العربية منهمكة في جوارها المباشر، يكاد الهمّ الفلسطيني يلامس ذهنها، وان اهتمت بالقضية